مقياس سوسيولوجيا الرابط الاجتماعي

السنة الثالثة ليسانس علم الاجتماع السداسي الثاني 2022-2023

أستاذ المقياس: زين الدين خرشي

العائلة الممتدة.. بين الاستمرارية والتحول

كانت العائلة الأبوية التقليدية هي الوحدة الأساسية للنظام القبلي والعشائري، ولقد أدت السياسات الاستعمارية المتمثلة في انتزاع الأراضي، التهجير، الأجارة، التبادل السوقي، نقدنة الاقتصاد ...الخ، إلى زوالها وتحوّلها إلى عائلة ممتدة. من ناحية أخرى نجد أن العائلة الممتدة هي تجمّع عائلي متعدد النواة (un groupement domestique polynucléaire).

التناقض الجوهري الكامن في قلب العائلة الجزائرية المعاصرة والتي هي عائلة ممتدة، يتمثل في: استمرار نشاط قيم العائلة الأبوية التقليدية في الذاكرة الجماعية التي يتم في الغالب مثلنتها، ومن ناحية أخرى، نجد أن التحولات السوسيولوجية قد دفعت لظهور أشكال جديدة من الاجتماع لازالت لم تتجذر في الزمن.

وجود هذا اللاتجانس بين التمثلات الثقافية والبنى الاجتماعية راجع لكون التغير حدث ويحدث بمنطق الشرخ، التناقض والانشقاق، لذا نجد البعض يرفض الماضي ويقدس الحاضر والبعض الآخر يرفض الحاضر ويقدس الماضي ويمثلنه.

ما يميز العائلة الممتدة عكس العائلة الأبوية التقليدية أنها لا تضمن عيشها من خلال الملكية الجماعية (الأرض المشتركة تجمع الإخوة وتجعل منهم وحدة استهلاكية وانتاجية ووحدة سكن). العائلة الممتدة تتمتع بتعدد مصادر العيش (الأجارة، القطاع غير الرسمي ...). والطابع الفردي لهذه الموارد هو الذي يتسبب في صراعات وحزازات بين أفراد العائلة، تعجز القيم التقليدية وحدها على إسكاتها والقضاء عليها. هذا الواقع الاقتصادي للعائلة الممتدة يجعل الوحدات النووية المُكوّنة لها تربح في استقلاليتها وفي فردانيتها.

من ناحية أخرى نجد أن سياسات الدولة الوطنية بعد الاستقلال (التصنيع، دمقرطة التعليم المجاني وجمهرته، توسع الأجارة، الهجرة نحو المدن، الاكتظاظ وأزمة السكن في المدينة ...) قد عمقت تحولات الجماعات الإجتماعية والعائلية. لقد صرنا أمام واقع اجتماعي تسيطر عليه العائلة الممتدة التي تتنوع

أشكالها من عائلة شديدة القرب من النموذج التاريخي (العائلة الأبوية) وأخرى بعيدة عنه وأقرب لنموذج العائلة النووية. اللافت أن هذا التنوع يكون بحسب المستوى المادي للعائلة ونوعية وحجم مواردها، فدرجة الالتزام والتقيد بالقيم المؤسسة للنظام الأبوي يكون على حسب المستوى المادي للعائلة.

فمثلا نجد العائلات الفقيرة ومحدودة الدخل أكثر التزاما بهذه القيم لتبرير الاستراتيجيات العائلية التي فرضتها حاجاتها المادية (ضيق السكن، البطالة، انخفاض الموارد المالية ...)، فيصبح التضامن والتكافل هنا طريقة في العيش وضرورة لا يمكن العيش دونها. يتم في هذا السياق إعادة تفعيل الثقافة الابوية من أجل صدّ كل تعبيرات الفردانية التي يدفع إليها واقع حضري تهيمن عليه الأجارة والمصلحة الخاصة.

أما بالنسبة للعائلات الغنية والميسورة فهناك حالتين وجب التمييز بينهما. 1. الحالة التي سيستمر فيها الإخوة في العيش مع بعضهم البعض رفقة والديهم أو أحدهما، مع ظروف تتيح لكل وحدة جوازية/نووية التمتع بفضائها السكني الخاص بها (بيت كبير بعدة طوابق أو بعدة غرف ...)؛ 2. الحالة الثانية حيث يستمر فيها الأبناء المتزوجون في العناية بوالديهم، الذين بقوا تحت الوصاية المباشرة والإقامة رفقة أحد الإخوة المتزوجين (في الغالب يكون أكبر الإخوة). العائلة الممتدة هنا مستمرة لكن في أماكن سكن مختلفة بحيث ينتفي عنصر وحدة السكن.

على هذا الأساس نجد اختلافا بين علماء الاجتماع بالنسبة لموضوع تسمية العائلة الجزائرية حاليا وتحديد خصائصها. هناك من يتحدث عن عائلة موسعة famille élargie، عائلة ممتدة Famille étendue، عائلة مركبة F. Composée ...الخ. وهناك من ينفي وجود نموذج أو شكل واحد مسيطر للعائلة في الجزائر ويفضل الحديث عن نمط عائلي متنوع.

للوقوف على هذا الواقع التعددي والمتنوع الذي يميز المجموعة العائلية في الجزائر نورد أهم نتائج دراسة قامت بها عالمة الاجتماع فاطمة أوصديق[1] في مدينة الجزائر حيث لاحظت وجود 5 أشكال للجماعة العائلية في بعض أحياء العاصمة:

- عائلة نيو-أبوية ممتدة Famille néo patriarcale étendue (زوجان، أبناء غير متزوجين وآخرون متزوجون، أحفاد)؛

- عائلة نيو-أبوية مقلّصة Famille néo patriarcale réduite (زوجان، أبناء غير متزوجين)؛

- عائلة نووية famille conjugale (زوجان، أطفال)؛

1 Fatma Oussedik, Femmes et fécondité en milieu urbain, CREAD, Alger, 1989.

- عائلة نووية مقلصة f. nucléaire réduite (أطفال يعيشون مع واحد من الوالدين مطلق أو أرمل)؛

- العائلة ما فوق النوويةf. Para-nucléaire (زوجان مع أطفال يقيمون عند عائلة الزوجة بسبب أزمة السكن).

أما حسب مصطفى بوتفنوشت[2] فيرى أنه إذا ما انطلقنا من متغير مكان الإقامة فيمكننا التمييز بين شكلين من العائلة في الجزائر: العائلة النووية (زوجان وأطفال) والعائلة المركبة (عدة أزواج مع أطفال). لكن إمعان النظر في هاذين النموذجين يقود إلى اكتشاف أنهما شكلان مؤقتان أو انتقاليان وغير مستمرين في الزمن، وكأنه لا يوجد في الجزائر نموذج عائلي واحد مسيطر ومستقر عبر الأجيال. فهناك عائلات نووية في طريقها لأن تصبح مركبة مع كبر أبنائها وزواجهم، كما توجد عائلات نووية جديدة تتشكل بعد انفصالها عن عائلات مركبة. تلعب الحالة الاقتصادية والمادية للجماعة العائلية هنا دورا محددا لتطور الشكل أو النموذج الذي ستأخذه.

بعد هذا العرض من الضروري طرح سؤال يبدو لنا ملحا ومنطقيا ومفاده: هل توجد عائلة نووية في الجزائر؟ مبدئيا، يمكن القول أنه ورغم وجود أزواج مع أطفال يشكلون وحدة منفصلة سكنيا إلا أنه من الصعب اعتبارهم عائلات نووية بالنظر للعلاقات التي تقيمها هذه العائلة مع العائلة الأصل (la famille souche) وأفرادها (كثرة الزيارات، التبعية العاطفية، التدخلات المباشرة للوالدين في شؤون الزوجين الخاصة ...). وعليه نجد عالم الاجتماع لهواري عدي يصوغ الفرضية التالية بخصوص هذا السؤال "لقد تحولت العائلة الأبوية إلى عائلة ممتدة والتي بحسب مواردها المادية والرأسمال الثقافي لأفرادها، تتهيكل إما في شكل عائلة مركبة F. Composée من عدة جماعات نووية مع وحدة سكن واستهلاك؛ أو في شكل شبكة عائلية Réseau familiale مهيكل حول جماعة نووية أساسية (الوالدين) لكنها تتوزع على أماكن إقامة متعددة".

إذا نحن في الجزائر بصدد عائلة ممتدة بنوعين ولا وجود لعائلة نووية فعليا وعلى نحو مستقر ومستمر في الزمن.

العائلة مركبة والشبكة عائلية

1. أصل وتطوّر العائلة المركبة

2 Mostefa Boutefnouchet, La famille algérienne, évolution et caractéristiques, SNED, Alger, 1980.

كانت الجماعات العائلية التي هاجرت من الريف نحو المدينة خلال سنوات الستينات والسبعينات من القرن الماضي، كانت بأحجام مختلفة وتبنت استراتيجيات متنوعة لاحتلال الفضاءات السكنية في المدينة ومن بين هذه النماذج يمكننا الحديث عن الأمثلة التالية:

حالة أولى: عائلة ممتدة تتكون من أم (60 سنة)، ثلاثة من أبناءها متزوجون (30، 35 و 40 سنة)، ولديهم أطفال تتراوح أعمارهم بين الـ 2 و16 سنة، كما أن لها 3 أبناء آخرين غير متزوجين (19، 20 و22 سنة) من بينهم بنت واحدة. تقيم هذه العائلة في ثلاثة شقق في نفس العمارة أو في نفس الحي. تقيم الأم رفقة أبناءها الثلاث غير المتزوجين عند ابنها المتزوج الكبير والذي يقع على عاتقه لعب دور رب العائلة في غياب الأب. أما الإبنين المتزوجين الباقيين فيسكنان على نحو فردي كل في منزل مستقل به، لكنهما مرتبطين بقوة بالمنزل الرئيسي أين يقيم الأخ الكبير وعائلته النووية رفقة الأم وباقي الإخوة. يتميز البيت الرئيسي بتوزيع خاص للغرف وللفضاء السكني: غرفة لرب العائلة وزوجته، غرفة الأم وابنتها حيث يلتحق بهما الأحفاد ليلا للنوع معهم في نفس الغرفة، وأخيرا غرفة الأبناء غير المتزوجين، يتقاسمونها مع أبناء الأخ (رب العائلة) الذكور ليلا. اللافت أنه باستثناء غرفة رب العائلة (الأخ الكبير) التي يتقاسمها مع زوجته وأبناءه الصغار (من 0 إلى 4 سنوات) فإنه لا وجود لغرفة يمكن اعتبارها غرفة شخصية، وأن هذا التقسيم يكون فعليا فقط خلال الفترة الليلية وحسب السن والجنس أما في النهار فكل الغرف تصبح غرفا مشتركة.

حالة ثانية: عائلة ممتدة تتكون من الوالدين (50 سنة)، إبنان متزوجان و4 غير متزوجين من بينهم بنتين إثنين (15 و17 سنة). تقيم هذه العائلة في مسكنين منفصلين، يشغل الأول الأب والأم والأبناء غير المتزوجين رفقه واحد من الأبناء المتزوجين الذي سيصبح هو في المستقبل رب العائلة ومعيل الوالدين عند كبرهما في السن؛ أما المسكن الثاني فمخصص للإبن الثاني المتزوج وعائلته النووية. توزيع الغرف في البيت الأول هو نفسه التوزيع المذكور في الحالة الأولى.

حالة ثالثة: عائلة ممتدة تتكون فقط من إخوة متزوجين، انتقلت إلى المدينة حيث تقطن في شُققً ومساكن بعدد الجماعات النووية التي تتكون منها، كانت العلاقات بين هذه الجماعات العائلية (الأخوة وعائلاتهم) قوية ومكثفة خلال السنوات الأولى (خرجات جماعية، زيارات دورية ...)، لكنها تراخت تدريجيا مع الوقت وتباعدت، لتصبح الجماعات النووية هذه عائلات مركبة مكونة من جماعات نووية متعددة.

هذه الحالات الثلاثة المعروضة أعلاه لا تغطي طبعا كل الأشكال الموجودة فعلا في الواقع. الهدف من عرضها هو تبيان التنوع الذي قد تأخذه الجماعة العائلية في السياق الحضري في الجزائر المعاصرة.

والمهم هنا هو الكشف عن أن التحول من الريف إلى المدينة خلال الستينات والسبعينات أجبر العائلة الممتدة على التخلي عن وحدة السكن بحكم طبيعة السكن في المدينة وكذا الكلفة الاقتصادية الكبيرة للسكن الكبير القادر على احتواء كل الأفراد العائلة الممتدة. واللافت هنا هو أن الاستغناء عن وحدة السكن أو السكن المشترك لم يفضي إلى تشكل العائلة النووية بشكل نهائي ومستقر في الزمن، فالملاحظ أنه وبعد سنوات ومع كبر أبناء العائلة النووية نجدها تتحول إلى ممتدة بفعل انتشار البطالة واستفحال أزمة السكن اللتان تجبران الأبناء المتزوجين على طلب مساعدة الوالدين والسكن معهما في نفس البيت.

خلال الستينات من القرن الماضي، مكّنت وفرة السكنات والأملاك الشاغرة التي تركها المعمرون العديد من الجماعات النووية من التشكل والاستقلال لنفسها بسكن خاص بها. لكن هذه الاستقلالية لم تستمر في الزمن وأجهضت في غضون سنوات قليلة. يمكن في هذا الصدد ذكر سببن اثنين لهذا: كَبُر الأبناء وتزوجوا ولم يجدوا مسكنا خاصا بهم بسبب أزمة السكن والبطالة؛ إضافة إلى أن الضيق المكاني (بحيث يتعايش 6 إلى 10 أفراد في مساحة لا تزيد عن 80 م2) ساهم في القضاء على الخصوصية الامر الذي زاد في النزاعات بين أبناء الجماعة العائلية.

2. الشبكة العائلية كمرحة انتقالية نحو العائلة النووية

حين يتقدم الوالدان في العمر ويبلغان سن الـ 60 أو 70 سنة، يعبرون عن رغبتهم في الراحة والطمأنينة (لَهْناَ) تحت ضغط المشاكل الكثيرة التي مروا بها وعايشوها بفعل الاحتكاك الكبير والصراع بين أفراد العائلة والبيت الكبيران. اللافت أنهم هم أنفسهم من يدفع الأبناء المتزوجين نحو الاستقلال بمسكن خاص بهم محتفظين معهم بأصغر الأبناء المتزوجين، فتقوم زوجته بمساعدتهم ويكون الإبن سند لهم. في الواقع نحن أمام تحول كبير؛ في الستينيات كان مجرد خروج أحد الأبناء عن البيت العائلي واستقلاله بمسكن خاص به وبعائلته الصغيرة يعتبر عيبا كبيرا، أما اليوم فإن الوالدين هما من يدفع الأبناء المتزوجين إلى هذا القرار، دلالة هذا التحول أن المحافظة على النموذج العائلي الأبوي والتماهي معه مرتفع الكلفة من الناحية ليس فقط المادية بل كذلك النفسية والذهنية بالنسبة لأفراد الجماعة العائلية خصوصا الوالدين.

أزمة السكن التي احتدت خلال الثمانينات والتسعينات دفعت العائلات الممتدة المركبة إلى التعبير عن الرغبة في الانفصال والاستقلالية. رغبة الوالدين في الابقاء على ابناءهم المتزوجين معهم تحت سقف واحد وفق تصور ورغبة تطمح لإعادة إنتاج العائلة الابوية تراجع مع الزمن. وفي هذا السياق نشهد تجسيد شكل جديد للعائلة الممتدة وهو الشبكة العائلية: حيث يُبقي الوالدين على أصغر الأبناء

المتزوجين معهم، يتكفلان بتربية ورعاية أبناءه ويسهر هو وزوجته على الاعتناء بهما في كبرهما. أما علاقة الوالدين بباقي الأبناء والأحفاد فتتم عبر الزيارات الدورية.

إن الشبكة العائلية هي عائلة ممتدة لا تتقاسم فيها الجماعات النووية المُكوّنة لها نفس مكان الإقامة. وتجتمع العائلة في مناسبات الأفراح والأحزان. الشبكة العائلية شكل عائلي يتطلب موارد مالية، وميزته أنه يوفر ويوفق بين مطلب التمسك بالقيم الأبوية (التواصل الجيلي متى ما تم التعبير عن الرغبة في ذلك) من ناحية، وطموح المحافظة على الاستقلالية من ناحية أخرى؛ إنه عيش للحالة الأبوية من دون إكراهاتها. تستمد الشبكة العائلية انسجامها من حضور العائلة الأصل famille souche المتمثلة في بيت العائلة حيث يقطن الأب والأم، وبرحيل الوالدين تتباعد مكونات الشبكة وتنقسم إلى شبكات متعددة لكل منها مركزه الخاص.

من ناحية أخرى يلاحظ نلاحظ أن العائلات الممتدة المركبة تحضر أكثر لدى الفئات الاجتماعية الفقيرة ومحدودة الدخل، أما العائلات الممتدة الشبكية فلدى الأوساط الاجتماعية الميسورة والغنية.

3. تراجع الأب والصعود القوي للأم

لا تأتي موارد العائلة الممتدة من الملكية الجماعية (= الأرض) كما كان ذلك ضمن النموذج العائلي الأبوي الذي كان مسيطرا تاريخيا في المجتمع الجزائري، بل من مداخيل أبناءها الأجراء. أفقدت هذه الوضعية الأب سلطته التي كانت في السابق مرتبطة ومستمدة في جانب كبير منها من سلطة القرار التي كان يتمتع بها فيما يخص تسيير وتوزيع الميزانية المنزلية. إن واقع توزيع السلطة في الفضاء العائلي في سياق العائلة الممتدّة، يبرز احتفاظ الاب بسلطة رمزية في حين أن جانب كبير من السلطة الفعلية هو في يد الأم رفقة كبير أبناءها الذي وبسبب دخله العالي أو لسمات شخصية أو لكبر شبكة علاقاته فإنه يلعب دور رب العائلة الفعلي فيما يحتفظ الأب بالمكانة الرمزية.

كانت طبيعة الاقتصاد ونوعية المورد الاقتصادي في سياق العائلة الأبوية تجعل من الأب هو من يملك ويمارس السلطة الفعلية وليس أبناءه. أما في سياق العائلة الممتدة فنجد أن الأم و/أو الابن (رب العائلة الجديد) هو من أصبح المسؤول مثلا عن شراء أثاث جديد والتكفل بمصاريف تمدرس إخوته وكذا البحث لهم عن عمل فيما بعد، إضافة إلى مراقبة أخواته وتتبع مسلكهم في الفضاء العام ...الخ. الأمر الذي يساعد الابن في أداءه لهذه الأدوار وممارسة هذه السلطة هو اطلاعه أكثر من أبيه على أسرار العيش في المدينة ورموزها. من ناحية أخرى نجد أن الإبن/رب العائلة (الذي يطلق عليه في بعض المناطق لقب دّادّا) يساهم من خلاله صلاحياته وتدخلاته ضمن الفضاء العائلي في تحسين ظروف عيش نساء العائلة حيث يقتني لهن أجهزة كهرومنزلية تسهل عليهن أداء الأشغال المنزلية ويجعلهن

يتمتعن بوقت حر أكبر. يجمع الدور الذي يلعبه "الإبن-رب العائلة" في سياق العائلة الممتدة القاطنة في المدينة، بين المساهمة الفاعلة في إعادة إنتاج الثقافة والقيم الأبوية من جهة بصفته "رب العائلة"، وكذا التحكم في والتمكن من مفاتيح ورموز العلاقات المهيكلة للفضاء الاجتماعي الجديد (الشغل، الإدارات ...الخ) من جهة أخرى.

فيما يبقى الأب غريبً عاجزً ومهمشً عن هذا الواقع الحضري المديني الذي لا يتحكم تماما في تفاصيله، خاصة وأن قيمه التقليدية الأبوية الريفية تجعله غير منسجم مع الإطار الحضري ونمط العيش فيه، فالمدينة تتطلب هابيتوس جديدً ومميزً يكون فيه الرأسمال العلائقي الذي يتمتع به الإبن ضروريا.[3]

بدعم من الإبن-رب العائلة (le fils chef de ménage) بدأ صعود الأم الذي أفضى إلى إعادتها التفاوض على توزيع السلطة داخل الجماعة العائلية وكذا المكانة التي تحتلها داخلها وعلاقتها بمختلف أفراد العائلة، خصوصا علاقتها بزوجها (الأب). في هذا الصدد أصبح نفوذ وثقل الفريق (le couple) "أم ابن" أكبر من نفوذ ووزن الفريق "أم أب / زوجة زوج". هكذا إذا تم تقويض سلطة الأب والتقليل من صلاحياته وتهميشه تدريجيا، خاصة مع بداية تلقي الأم بشكل منتظم لجزء من المداخيل المالية لأبناءها لتصرفها على المنزل وفي قضاء حاجاتها الخاصة وهو أمر مستجد بالنسبة لها لم تكن تتمتع به فيما قبل حين كان أبناءها صغارا وكان زوجها في منتصف العمر. على هذا النحو يصبح للأم سلطة اقتصادية تضمن لها استقلالية مادية يسهل تحويلها إلى سلطة قرار داحل الجماعة العائلية. أما الأب فيبقى له أن يتمتع بالجوانب الرمزية لسلطته، فيتنازل عن السلطة الفعلية مقابل استفادته من الاحترام الشكلي.

ما تم استعراضه أعلاه يبين كيف أن الحيز العائلي هو موضوع وإطار لصراع ولتضارب استراتيجيات الفاعلين في الدفاع عن مصالحهم وعن البحث عن مكانات جديدة، مستغلين موارد عدة (من بينها: العاطفة، متطلبات التضامن الجماعاتي، الفرص التي يتيحها اقتصاد السوق ...الخ). تكون الصراعات هنا متعددة ومتقاطعة بين الإخوة والاخوات، بين الأب والأم، بين الأب وأبناءه، بين الحماة وكناتها، بين الكنات وأخوات الأزواج ....الخ.

3 ناصر جابي، الأسطورة، الجيل والحركات الاجتماعية في الجزائر: أو الأب الفاشل والابن القافز، مجلة انسانيات، العدد 25-2004/26، ص 43-54.